وحدة الفضل

وحدة الفضل البشري لا يعترض طريقها شيء من
فوارق المكان والزمان والعنصر واللغة والدين والمذهب

إن بحثنا الحاضر لانساني محض يحسب طعنة نجلاء في صدر كل متعصب ذميم إن كان المتعصب مكابراً . فاذا كان على تعصبه حاوياً جرثومة خير مستعدٌ لاتباع الحق أينما وجده فالبحث حينئذٍ عمل جراحي له ضروري لا بدّ أن يؤلمه في أول الأمر ولكنه يضمن له الشفاء والعافية .

وقد يطرأ وهم على أذهان بعض القرّاء يظنون أن البحث الحاضر بمحاولته تأييد وحدة الفضل بين أصناف البشر يجني على ما للوطنية والعنصرية والرابطة الدينية والطائفية من حق خصوصي على صاحبها فتفتر غيرته على ما ينتسب إليه من أصائل هذه التقسيمات البشرية وتضعف عزيمته في مداعاة هذا الاعتبار . كلاّ إنه لوهم مبني على أساس فاسد فان تأييد وحدة الفضل والنبل بين أصناف البشر يحفز كل إنسان الى أن يكون أتمّ تيقظاً وأقرب إنصافاً بدأب جامعته العليا وهي الجامعة الإنسانية ومن ثمّ يقربه من مخاطر ومضار التعصب في غير موضعه والتحيز الأعمى غير الحالّ بجلّته . إنّ تأييد وحدة الفضل يفتح أبصارنا وبصائرنا من هذه الناحية الجوهرية ولكنه لا يضطرنا مطلقاً الى إغفال ما علينا من واجبات خصوصية نحو وطننا وعنصرنا وطائفتنا بل نظل على ما يطلب منا من بذل عناية واهتمام بهذه الفرعيات اللاصقة بنا مع تشريفنا وتمجيدنا الأصل المتفرعة هي عنه والتفافنا باخلاص حول هذا الأصل وأريد به الجامعة الانسانية العليا .

قبل أن أكون إسرائيليًّا أو نصرانيًّا أو مسلماً أو بوذيًّا أو وثنيًّا أو دهريًّا أي مادّيّ المذهب . وقبل أن أكون عربيًّا أو تركيًّا أو فارسيًّا أو فرنسويًّا أو

إنكليزيًّا أو روميًّا أو صينيًّا أو هنديًّا . قبل أن أكون شيئًا داخلاً في هذه الأمم وهذه الملل أنا انسان ، فالإنسانية لها عليّ الحق الأول ، وعليّ نحوها الواجب الأول . فلا بدّ لي أن أنظر نظرة انسانية عالية حين اضطر الى المفاضلة بين فرد وفرد أو بين جماعة وجماعة من إخواني البشر . وتلك النظرة الإنسانية يجب أن تبنى على العدل بحد ذاته مع احتمال مقبول ودهاء غير مكروه في مراماة ومداراة ما أنسب إليه من جماعة أو ملة عن طريق دفاع أو اعتذار أو تنصل حين أرى حكمي يخالف كرامة أو مصلحة هذه الجماعة أو هذه الملة، ولكن هذه المداراة يجب أن لا تتجاوز حدًّا محدوداً معقولاً لا يستغله الحق لأنه لا يضيع حقّه وان رآه يخفف شيئاً عن عاتق خصمه.

فاذا اتخذنا هذا المبدأ الانساني القويم رأينا المحبة الانسانية تشرف على جميع نواحيه وتتكفل وحدها بصون رياضه ، والذود عن حياضه .

وهذه المحبة الانسانية المقدسة المتصلة بشعاع من نور عرش الله هي التي أحس بها وأرادها ورحم عنها القطب العلاّمة الكبير الشيخ محيي الدين بن عربي حين قال . روّح الله روحه ، ونوّر ضريحه :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان ومصحف مسلم والمجبل لصراني وتوراة يهودي
أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهو موضوع نجت عليه في قصيدة لي وطنية اجتماعية حيث قلت :

ولا تحسبنّ الدين عائق سعيكم فما الدين الاّ الفضل والنبل هذّبا
وليس اختلاف الدين في الفرع ضائراً وفيه اتفاق الأصل خيراً تجليا
وكم من ضعيف دينه ذو تعصب وكم دين فينا التسامح أوجبا
فباكرهاً غير ابن دينك فاصباً لدينك قد أصبحتَ للدين مغضبا
وضيّقته عقلاً ونقلاً وإنما كرحمة ربي دينُ ربي رُحبا

ثم ان التعصب تعصباً أعمى باندفاع شديد لفئة معينة قد يكون عند وقوع حرب أو

عندة أو معضلة أقل ثباتاً وأمانة لما يعتبره له من المعتدل في رأيه . لأن المعتدل يصدر عن فكر واضح اختبار وتقليب الأمور على جميع وجوهها فهو في مبدئه غير معرَّض للتزعزع مثل ذاك .

ان النبل والفضائل مشتركة في جميع الأمم وإذا زعم أناس أن أمتهم فاقت سواها بالذات وتربية أهل الفضل ثم عارض هؤلاء الزاعمين آخرون مدعين هذا التفوق لأمتهم فقلما يهمنا في موضوعنا الحاضر ان يربح الدعوى هؤلاء أو أولئك ما دام العقلاء والمنصفون يعترفون بما تريد الآداب به من أن أبواب الفضل والمحامد ومكارم الأخلاق كانت ولا تزال مفتوحة لجميع أصناف البشر على اختلاف العصور والأقطار والأديان والمذاهب والعناصر . وما كان أكثر جماهير الفضلاء في وثني المصريين والآشوريين واليونان والرومان وعرب الجاهلية وغيرهم .

* * *

وقبل الخروج من هذا البحث لا بد لي من تحذير كل قارىء وسامع أمراً خطيراً هو سم زعاف لجرثومة العدل وعقبة كؤود في سبيل الأخاء البشري . وهذا الأمر هو الانتقال في الحكم صفواً صفواً من التخصيص الى التعميم فاذا ساء تني خلة أو معاملة أو عمل من فلان لم أكتف بالحكم عليه انه ناقص دنيء ، بل يغلب ان أنتقل بهذا الحكم عشيرته أو بلدته أو أبناء ملته مما ينتج مجالاً واسعاً لتبادل سوء الظن وما بعد سوء الظن إلا الخصومة ثم العداوة ثم الضغائن والشقاق . وهذا الجور في تعميم الحكم كثيراً ما ترتكبه بدافع من صورة الغضب أو من قلة روية وتحبس . لأن التأني يقتضي تمهلاً يضعرنا وعناء يؤلمنا . ومن ثم نهرب من هذا السبيل الطويل الوعر الى سبيل أسهل وأخصر هو سبيل الحكم المستعجل احتياطاً ومجازفة مفضلين الراحة لأنفسنا . ولكنها راحة أثيمة خائنة تجر وراءها ندماً وعذاباً لروح الحق والخير والصواب .

اللاذقية — سوريا

الدكتور مرقص